المبحث الأول

مفهوم الاحتجاج العقليّ، وأنواعه، والفرق بينه وبين الجدل

مفهوم الاحتجاج العقليّ:

- **في اللُّغة:**

ذكر ابن فارس (٣٩٥هـ) أنّ الحاء والجيم أصل يدلّ على القصد، ومنه المَحجّة، وهي جادّة الطريق، «ويمكن أن تكون الحُجَّة مشتقّة من هذا؛ لأنها تُقصَد، أو بها يُقصَد الحقُّ المطلوب؛ يقال: حاججتُ فلانًا، فحجْجته، أي: غلبته بالحُجَّة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حُجَج، والمصدر الحِجَاج»[١]. و «الحُجَّة: الدلالة المبينة للمَحجَّة، أي: المقصد المستقيم»[٢].

وجاء في لسان العرب: احْتَجَّ بالشيءِ: اتخذه حُجَّة، والحُجَّة: هي الدليل والبرهان، أو ما دُوفِع به الخصم، وجمعها حُجَج وحِجاج، وحاجَّه مُحاجَّة وحِجاجًا: نازعه الحُجَّة، وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا: غلبه على حُجَّتِه، ورجل مِحْجاجٌ، أي: جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التَّخاصُم[٣].

وقال السيِّد الشريف الجرجانيّ (٨١٦هـ) : «الحُجَّة: ما دُلّ به على صحَّة الدعوى، وقيل: الحُجّة والدليل واحد[٤]»[٥]. «والمجادَلة الباطلة قد تسمّى حُجّة، كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦] »[٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة : (حج) : ٢٣٢ .

(٢) المفردات في غريب القرآن : (حج) : ١١٥ .

(٣) ينظر : لسان العرب : (حجج) : ٢/٢٧- ٢٨ .

(٤) وضعت تعريفه ضمن التعريفات اللغويّة مع أنّ كتابه لتعريف المصطلحات؛ إذ إنّه عرّف الحجّة، وقد أردت بالتعريف الاصطلاحيّ مصطلح الاحتجاج ذاته.

(٥) التعريفات : ٨٦ .

(٦) الكليات : ٤٠٦ .

- **في الاصطلاح:**

ورد الاحتجاج عند البلاغيِّين بطريقين:

أولاهما: مصطلحات مشتقَّة من الـــحُجَّة بطرق مختلفة، فتارة يأتي المصدر معرَّفًا موصوفًا بالعقليّ أو النظريّ، وآونة يُعطَف عليه ما يقاربه، وحينًا يكون مفردًا بصيغة المفاعَلة، وطورًا يأتي المصطلح مصوِّرًا الغرض، مضافًا إلى الخصم، ومتعلِّقًا بالـــحُجَّة. وإذ عنونتُ البحث بالاحتجاج العقليِّ، فسأبدأ بمن ذَكر هذا المصطلح من البلاغيِّين، ثم أتابع وروده تبعًا للتسلسل التاريخيّ.

١. **الاحتجاج العقليّ**: لعلّ أوَّل من أورد الاحتجاج موصوفًا بالعقليّ عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـــ) حيث ألمح إليه في حديثه عن صنعة الشعر الساحرة، وما فيها من دفع وإبطال، من حيث يشهد العقل للحُجَّة التي نُطِق بها بالصِّحَّة بأسلوب **الاحتجاج العقليّ**[(١)].

٢. **الاستشهاد والاحتجاج**: ظهـــرت بوادر مصطلح الاحتجاج عنـــد أبي هلال العسكريّ (٣٩٥هـــ) حيث عقد فصلاً عَنونه **بالاستشهاد والاحتجاج**، قال فيه: «هذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدَثين، وهو أحسن ما يُتعاطى من أجـــناس صـــنعة الشـــعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتيَ بمعنًى، ثم تؤكِّده بمعنًى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوّل، والحجّة على صِحّته» [(٢)]. واستشهد عليه بأمثلة من النثر والشعر.

٣. **الاحتجاج النظريّ**: ورد هذا المصطلح عند ابن النقيب (٦٩٨هـــ)، وجعله قسمًا من أقسام فنون المعاني، يقول: «بعض أهل الشأن يسمّيه المذهب الكلاميّ، وهو أن يَذكر المتكلِّم معنًى يستدلّ عليه بضروب من المعقول» [(٣)].

وأخذه عنه تلميذه أبو حيّان (٧٤٥هـــ)، ونقل تعريفه، يقول: «هذا النوع عند علماء البيان يسمّى الاحتجاج النظريّ، وهو أن يذكر المتكلِّم معنًى يستدلّ عليه بضروب من

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة : ٣٤٧ .

(٢) كتاب الصناعتين : ٤٣٤.

(٣) مقدمة تفسير ابن النقيب : ٢٧٥ .

المعقول نحو: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩] ، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ ﴾ [يس: ٨١]، وبعضهم يسمّيه المذهب الكلاميّ» [(١)]، وعرّفه في موضع آخر بقوله: «هو أن يُلزَم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج» [(٢)].

٤. **المحاجّة**: ورد هذا المصطلح عند ركن الدين الجرجانيّ (٧٢٩هـ) في المحسِّنات البديعيّة المعنويّة، يقول: «المحاجّة هي ادّعاء شيء مع الحجّة عليه، وهي كثيرة في القرآن»[(٣)].

٥. **إلجام الخصم بالحجّة**: عرّفه الزركشيّ (٧٩٤هـ) بأنَّه: «الاحتجاج على المعنى المقصود بحجّة عقليّة، تقطع المعاند له فيه»[(٤)].

فالمصطلحات الخمس السابقة دارت حول مادّة الحجَّة، واشتقّت منها.

أمّا الطريق الثانية: فمصطلح غير مشتقّ من المادّة اللغويّة للاحتجاج، لكنّه جُعل مرادِفًا له، هو المذهب الكلاميّ، وسأذكر أوّل من أشار إلى علاقته بالاحتجاج، ثم أتتبَّع أبرز آراء العلماء فيه.

المذهب الكلاميّ:

أشار ابن النقيب (٦٩٨هـ) إلى أنّ المذهب الكلاميّ مرادف للاحتجاج النظريّ، وتبعه أبو حيّان (٧٤٥هـ) –كما تقدَّم–، وفيما يلي عرض لما ذكره العلماء عن هذا المصطلح:

١. جعل ابن المعتزّ (٢٩٩هـ) المذهب الكلاميّ الباب الخامس من البديع، واكتفى فيه بقوله: « هو مذهب سمَّاه عمرو الجاحظ المذهب الكلاميّ[(٥)]، وهذا باب ما أعلم أنّي

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٨٩/٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط : ٣٥٠/٥ .

(٣) الإشارات والتنبيهات : ٢٢٢ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٤٦٨/٣ .

(٥) أشار كثير من العلماء إلى أنّ الجاحظ هو صاحب تسمية المذهب الكلاميّ، لكني لم أقف على حديثه عنه في البيان والتبيين، ولا في الحيوان، ولا في الرسائل، ولعلّه ذكره في كتابه المفقود عن نظم القرآن. وكذا وجدت وداد نوفل تذكر أنها لم تعثر على نصِّه في أحد كتبه، وتفترض أن يكون في كتب مفقودة، أو مرويًّا مشافهة دون تدوين. ينظر : المذهب الكلامي : ٤٣ .

وجدت في القرآن منه شيئًا، وهو يُنسَب إلى التكلُّف، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا»[١].

٢. وعقد أبو هلال (٣٩٥هـ) له فصلاً، لم يزد فيه على نقل كلام ابن المعتزّ عنه[٢].

٣. وعرّفه ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) بأنّه: «احتجاج المتكلِّم على المعنى المقصود بحجَّة عقليّة، تقطع المعاند له فيه؛ لأنّه مأخوذ من علم الكلام الذي هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقليّة»[٣]، وردّ على نفيه عن القرآن بقوله: « زعم ابن المعتزّ أنّه لا يوجد في الكتاب العزيز، وهو محشوّ منه»[٤].

٤. وقال ابن مالك (٦٨٦هـ): «المذهب الكلاميّ أن تورِد مع الحكم ردًّا لمنكره حجَّة على طريقة المتكلِّمين، أي: صحيحة مسلَّمة الاستلزام، وينقسم إلى منطقيّ وجدليّ:

فالمنطقيّ: ما كانت حجّته برهانًا يقينيّ التأليف، قطعيّ الاستلزام.

والجدليّ: ما كانت حجّته أمارة ظنِّيَّة، لا تفيد إلاّ الرّجحان.

وأوّل من ذكر المذهب الكلاميّ الجاحظ، وزعم أنْ ليس في القرآن منه شيء، ولعلّه إنَّما عنى القسم المنطقيّ، فإنّ الجدليّ في القرآن منه كثير، كقوله: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧]»[٥].

٥. وذكر نجم الدين ابن الأثير الحلبيّ (٧٣٧هـ) أنّ: «حقيقة هذا النوع احتجاج المتكلِّم على خصمه بحجَّة تقطع عناده، وتوجب له الاعتراف بما ادّعاه المتكلِّم، وإبطال ما أورده الخصم، وسُمِّي بالمذهب الكلاميّ؛ لأنّه يُسلَك في مذهب أهل الكلام في استدلالهم على إبطال حُجج خُصومهم»[٦].

٦. وعرّفه الخطيب القزوينيّ (٧٣٩هـ) بقوله: «هو أن يورد المتكلِّم حجّة لما يدّعيه

---

(١) البديع لابن المعتز : ١٤٧ .

(٢) كتاب الصناعتين : ٤٢٦ .

(٣) تحرير التحبير : ١١٩-١٢٠ ، وينظر : بديع القرآن : ٣٧- ٤٢ .

(٤) السابقان بصفحاتهما.

(٥) المصباح في المعاني والبيان والبديع : ٢٠٦ .

(٦) جوهر الكنز : ٣٠٢ .

على طريق أهل الكلام» [١]، وعدّه هو وبعض شرّاح تلخيصه[٢] من البديع.

٧. انفرد السبكيّ (٧٧٣هـ) عمّن سبقه، وعجِب من صنيعهم، ورأى إدخاله في المعاني، يقول: «ولك أن تقول: هذا النوع كلّه ليس من البديع؛ لأنّه ليس في هذا تحسين لمعنى الكلام المقصود، بل المعنى المقصود هو منطوق اللفظ، فالإتيان بهذا الدليل هو المقصود، فهو تطبيق على مقتضى الحال؛ فيكون من المعاني، لا من البديع»[٣].

• مناقشة المصطلح:

بتأمُّل المصطلحات السابقة وتعريفاتها يتبيّن أنها تدلّ على فنّ واحد، تتعدّد مصطلحاته، وهو ما آثرتُ له تسمية عبد القاهر (الاحتجاج العقليّ)، وسأجعل مناقشتي للمصطلح كطريقة عرضه على مرحلتين، أبدأ فيهما بالمصطلحات الأقرب لغويًّا، وتتْبع المادة نفسها باختلاف جزئيٍّ في الإطلاق والتقييد، منتقلة منها إلى الاختلاف الكلّي الذي يجلّيه مصطلح المذهب الكلاميّ البعيد لغويًّا عن مادّة الاحتجاج.

أوَّلاً: سرّ إيثار مصطلح الاحتجاج العقليّ على التعريفات التي تدور في فلك مادّة الحجّة:

تشترك مع مصطلح الاحتجاج العقليّ في المادة اللغويّة المصطلحات الأربعة التي عُرضت وهي: الاستشهاد والاحتجاج، والاحتجاج النظريّ، والمحاجّة، وإلجام الخصم بالحجّة، لكنّها تختلف عنه إطلاقًا وتقييدًا، ويمتاز عنها بتقييده بالعقليّ؛ فبقية المصطلحات -فيما عدا النظريّ- أُطلق فيها لفظ الحجّة، أو مشتقّاته دون تقييد، ولا يخفى ما في تقييد الاحتجاج بالعقليّ من إشارة إلى سماته المرتبطة بالعقل، فهو مصدر الحجّة، ومكان تلقّيها، وعناية القرآن به كبيرة، واهتمامه به عظيم، يخاطب العقل بالحجّة الظاهرة والدليل المقنع، ويدعوه إلى التفكُّر والتدبُّر لإدراك الحقائق، «وإن كانت طريقة القرآن في هذا النوع تجمع بين العقل والقلب، وبينه وبين الوجدان، لكن تبقى الصِّبغة العقليّة واضحة في هذا النوع من الأدلّة القرآنيَّة، فهي تقدِّم الدليل العقليّ، ولا تنسى

---

(١) الإيضاح : ٣٤١ .

(٢) ينظر : شروح التلخيص : ٣٧٢/٤ .

(٣) عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) : ٣٧٢/٤ .

نصيب القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب»[١].

وقد وردت مادة (عقل) في القرآن الكريم بصيَغها المختلفة ﴿عَقَلُوهُ﴾ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ ﴿نَعْقِلُ﴾ ﴿يَعْقِلُهَآ﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ تسعًا وأربعين مرّة، وكلّها جاءت بمعنى التفكُّر[٢]، وكثيرًا ما تُختم آيات الاحتجاج بقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الذي ورد بصيغة الاستفهام سبع عشرة مرّة، أو بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣] التي وردت بصيغتها سبع مرَّات.

ورأيتُ هذا الوصف أفضل من نعته بالنظريّ؛ مع أنّ الأمر بالنظر كثير في القرآن كذلك[٣]، والنظريّ «يعني نظر العين والقلب، فالنظر من العين هو حسّها، ومن القلب هو الفكر في الشيء تقدِّره، وتقيسه منك»[٤]، لكنّ النظر يعرّف بأنّه «الفكر الذي يُطلَب به علم، أو ظنّ»[٥]، ويرتبط بالنُّظَّار، وهم أصحاب النظر والاستدلال الذين يستعملون الأدلّة والأقيسة، سواء كانت تلك الأدلّة أو الأقيسة رياضيّة ومنطقيّة، أو كانت فلسفيّة أو كلاميّة، ومنهم نظّار منتسبون إلى السنَّة على دَخَنٍ، أو إلى طوائف أخرى، ولابن تيميَّة (٧٢٨هـ)، وتلميذه ابن القيّم (٧٥١هـ)، وغيرهما من عُلَماء الأمّة المحمديّة في كتبهم، مناظرات معهم، وردود عليهم. يقول ابن تيميّة مبيِّنًا مخالفتهم للسلَف: «ومثل هذا يوجد كثيرًا فى مذاهب السلَف التى خالفها بعض النُّظَّار، وأظهر حجّته فى ذلك، و لم يعرف حقيقة قول السلَف»[٦].

---

(١) أساليب الإقناع : ٣١ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس : (عقل) : ٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) وردت مادة (نظر) في القرآن بعدّة معانٍ، منها مطلق الرؤية البصرية نحو: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ١٢٧]، ومنها الرعاية نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ومنها الانتظار نحو: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ، ومنها التفكُّر المقترن بالمشاهدة نحو: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ، وهذا النوع هو ما يتعلّق بالعقل، وورد حوالي خمسًا وأربعين مرة. ينظر : المعجم المفهرس : (نظر) : ٧٠٥- ٧٠٧ .

(٤) معجم مصطلح الأصول : ٣٣٨ .

(٥) السابق بصفحته .

(٦) مجموع الفتاوى : ٤٣٦/٧ .

وينبِّه ابن القيِّم على فساد طريقتهم بقوله: « إنّ المعرضين عن الأدلّة السمعيّة المعارضين لها إذا فعلوا ذلك، لم يبقّ لهم إلاّ طريقان: إمَّا طريق النظَّار، وهي الأدلَّة القياسيـــَّة العقليـــَّة، وإمّا طريق الكشف، وما يُدرَك بالرياضة، وصفاء الباطن. وكلٌّ من هاتين الطريقتين باطلهُ أضعاف حقّه، وفيها من التناقض والاضطراب والفساد ما لا يحصيه إلاّ ربّ العباد، ولهذا تجد غاية من سلك الطريق الأُولى الحيرة والشكّ، وغاية من سلك الطريق الثانية الشطح. فغاية أولئك عدم التصديق بالحقّ، وغاية هؤلاء التصديق بالباطل، وحال أولئك تشبه حال المغضوب عليهم، وحال هؤلاء تشبه حال الضالّين، ونهاية أولئك التعطيل والنفـــي، ونهاية هؤلاء الإلحاد، والقول بالوحدة والاتحاد؛ ولهذا لما وصل حذّاقهم في طريقة النـــظر إلى آخرها، ورأَوا غوائلَها وآفاتِها، ورأَوها لا توصل إلى المطلوب الصحيح رجعوا إلى طريقـــة الوحي والآثار النبويّة، كما صرّح به الرازيّ، وابنُ أبي الحديد، وأبو حامـــد، وأبو المعالي، وغيرهم، واعترفوا في آخر الأمر أنّ الطرقَ كلّها مسدودة إلاَّ طريق الوحي والأثر»[(١)] . فالاحتجاج النظريّ بهذا يقترب في إيحائه السلبيّ المرتبط بفرقة النُّظار من المذهب الكلاميّ، وسيظهر في المحور التالي سرُّ إيثار مصطلح الاحتجاج العقليِّ عليه.

ثانيًا: سرّ إيثار مصطلح الاحتجاج على المذهب الكلاميّ:

١. مصطلح الاحتجاج أقرب إلى الطبيعة البلاغيّة لهذا الفنّ[(٢)]، فله عِـــرق ضـــارب في جذورها بخلاف مصطلح المذهب الكلاميّ، البعيد عن الصبغـــة البلاغيـــّة؛ لذا رأت وداد نوفل إضافة (بطريقة بلاغيـــّة) لإبراز الجـــانب البلاغـــيّ في هذا الأسلوب[(٣)] إلى تعريـــف ابن أبي الإصبع[(٤)] الذي اختارته للمذهب الكلامـــيّ، وهو اقتراح جيِّد، لكنِّي أرى أنّ المصطلح نفسه كلاميّ فلســـفيّ عـــامّ، يخصّ طرائق المتكلِّمين، ويمكن تجاوزًا أن تندرج تحته الطرق البلاغيّـــة، مع تقييده بالقيد المذكور، وإلاّ فمذاهب المتكلِّمين لا تُشمّ منها رائحة البلاغة، بل هي آليـــّة جافّـــة، بخلاف مصطلح الاحتجاج الوثيق الصلة بالبلاغة.

---

(١) الصواعق المرسلة : ٣/١١٦٥- ١١٦٦.

(٢) سأفصل الحديث في قيمته البلاغية ص٤٣ من هذا البحث .

(٣) ينظر : المذهب الكلامي في الدرس البلاغي : هـــ في المقدمة.

(٤) سبق ذكر تعريف ابن أبي الإصبع للمذهب الكلامي ص١٩ من هذا البحث .

٢. مصطلح الاحتجاج أعمّ بصبغته التفاعليّة بين طرفين: مخاطِب ومخاطَب، أو مستدلّ، ومعترِض أو مجيب، بينما هناك من يقصر المذهب الكلاميّ على القياس والاستدلالات بأنواعها المختلفة ممّا لا يقوم على الحوار[١].

٢. مصطلح الاحتجاج أبلغ في إظهار الغاية من هذا الفنّ في الوصول إلى الحقّ؛ إذ هو مأخوذ من الحجَّة بما تحمله من دلالة القصد، ومنه المحجَّة بما تعنيه من الوضوح، بخلاف المذهب الكلاميّ، الذي قد ينشأ عنه معنًى سلبيٌّ يرتبط بذمّ طريقة المتكلِّمين[٢]، بخاصّة أنّ الموضوع في مجال البلاغة القرآنيّة وهي الأصل، وليست تابعة لطريقة المتكلِّمين. وإذ يُعرَف عن ابن المعتزّ أنه سنِّيّ، كان يردّ على الشيعة والمعتزلة ويحاربهم[٣]، فلعلّ هذا ما دفعه إلى نفي وجود المذهب الكلاميّ في القرآن صيانة له عن مذاهبهم المنحرفة.

وترجِّح وداد نوفل أنّ ابن المعتزّ لم يفصل بين علم الكلام بصبغته الفلسفيّة، والمذهب الكلاميّ بطبيعته البلاغيَّة، متأثِّرًا بمذهبه السنِّيّ الذي يرفض الاعتزال ويذمُّه، كما أنّ النماذج التي عرضها أظهرت أنّ الشاعر قد يلجأ إلى المِراء والمغالطة[٤] في الاحتجاج لفكرته، والإقناع بها؛ لذا كان له بعض الحقّ فيما ذهب إليه من نفي وجود المذهب الكلامي في القرآن، لكن فاته فرق مهمّ بين الحجّة الجدليّة المنطقيّة التي تهدف إلى الإقناع العقليّ المجرَّد، والحجّة البلاغيّة المنطقية التي تقصد التأثير البلاغيّ، وإن استعانت بالحجَّة المنطقيّة[٥].

والذي أراه أنّ هذه الغيرة تُحمَد لابن المعتزّ، بينما كان الأَولى به أن يبحث لهذا الفنّ البلاغيّ عن اصطلاح آخر يحلّ الإشكال، غير نفيه برمَّته من القرآن، وأحسب أنّ مصطلح الاحتجاج العقليّ يُزيل ما كان يحذَر.

ويحصر طاش كبرى زاده (٩٦٨هـ) الأسباب التي ارتبطت بعلم الكلام، أو المنتسبين

---

(١) ينظر : عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) : ٣٧٢/٤ .

(٢) سترد الإشارة إلى ما ذكره العلماء في ذمّ طريقة المتكلمين ص٢٨٤ من هذا البحث .

(٣) ينظر : ابن المعتز لمحمد خفاجي : ٧١ .

(٤) سيرد تفصيل معنى المغالطة ص٦٧ من هذا البحث .

(٥) ينظر : المذهب الكلامي في الدرس البلاغي : ٥٣ ، ٥٧.

إليه، وأدّت إلى نفور الناس منه، وحَذَرِهم مما يتَّصل به، في قوله: «وإنما يتداخله –أي: علم الكلام– الحرمة والكراهة لأحد أمور ثلاثة:

إمَّا من جهة إدخال مسائل لا توافق الكتاب والسنة، لخلط مباحث الفلسفة المخالفة للكتاب والسُّـــنَّة.

وإمَّا من جهة إثبات مسائله، لا على وجه يوافــق الكتاب والسُّنــَّة، بل يجــري على وفق العصبية والهوى، ككلام المعتزلة والمرجّئة والروافض وأمثالهم.

وإمَّا من جهة أنّ علم الكلام له قوّة قاهرة، وقدرة باهرة في دفع الخصوم، وقمع الأعداء، فلّعله يداخل صاحبه العُجْب والهوى من حيث لا يشعر.

ولهذا يُشترط أن لا يعلِّم العالم علم الكلام إلاّ بعد تزكية أخلاق المتعلِّم، وإخــلائه عن الهوى والبدعة، وإشراب قلبه عقائد واردة في الكتاب والسُّـــنَّة تقليدًا، ثم يثبتها ببراهين واردة في علم الكلام، فهذه آفات ثلاث، الأُوليَان منها خاصّة بعلم الكلام، والثالثة عامّة له ولغيره»[(١)].

هذا ما يتعلّق بتفضيل مصطلح الاحتجاج بعامّة على مصطلح المذهب الكلاميّ، وهي أمور أحسبها ترجح به مع أنّ المذهب الكلاميّ أشهر عند البلاغيِّين، وأقدم زمنًا؛ خــلافًا لما رأته وداد نوفل من تفضيل مصطلح المذهب الكلاميّ، وأنّ ابن أبي الإصبع ارتفع بمقدرته البلاغيــّة على تفهُّم طبيعة المذهب الكلاميّ عن التحرُّج الدينيّ الذي غطّى عقول البلاغيِّين، ومنعهم من تفهُّم طبيعته، فما إن يُذكَر حتى ترتسمَ أمامهم صور المنازعات الكلاميــّة، التي تدفع إلى ارتياد الباطل لإفحام الخصم[(٢)].

- **مناقشة التعريفات:**

بتأمُّل التعريفات السابقة بمصطلحاتها المختلفة باعتبار أنّ جميعها تدلّ على فنّ واحد تتعدّد مصطلحاته، يتبيّن التالي:

---

(١) موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة : ٢١٢ .

(٢) ينظر : المذهب الكلامي في الدرس البلاغي : ٦٥ .

١. ألمح عبد القاهر إلى مصطلح الاحتجاج العقليّ مستشهدًا عليه، و لم يعرِّفه.

٢. تعريف الاستشهاد والاحتجاج، وتعريف ابن النقيب للاحتجاج النظريّ، وكذا تعريف المحاجّة، ربما تنطبق جميعها على الاستدلال فقط؛ إذ لم تشِر إلى الجانب التفاعليّ الحواريّ في الخصومات، فضلاً عن أنّ في تعريف ركن الدين الجرجاني للمحاجّة إيحاءً سلبيًّا لا يليق بالقرآن في قوله: (هي ادّعاء شيء).

٣. أشار تعريف أبي حيّان إلى الجانب التفاعليّ، وإلى الخصم، لكنه مقتضَب جدًّا، قَصَر فيه الغرض على الإلزام، بينما أغراض الاحتجاج العقليّ كثيرة[1].

٤. أخذ الزركشيّ تعريفه لإلجام الخصم بالحجّة –بألفاظه نفسها – من تعريف ابن أبي الإصبع للمذهب الكلاميّ، مما يؤيِّد ما ذهب إليه ابن النقيب وأبو حيان من كونهما فنًّا واحدًا.

٥.تميَّز ابن أبي الإصبع في تعريفه للمذهب الكلاميّ بذكر الحجّة العقليّة، وأشار إلى الطرفين: المتكلِّم والمعانِد، وشملت عبارته: (تقطع المعاند له فيه) أغراض الاحتجاج، فالقطع يمكن أن يكون بإقناع أو إبطال أو تبكيت وإفحام وغيره من أغراض الاحتجاج.

٦. قيَّد ابن مالك، وكذا القزوينيّ الحجّة التي تورَد بكونها على طريقة المتكلِّمين، فلا يصحّ أن يُطبَّق تعريفاهما على كتاب الله.

٧.امتاز تعريف نجم الدين ابن الأثير الحلبيّ للمذهب الكلاميّ بالوضوح، فقد أفاد من ابن أبي الإصبع، وزاد عليه الإشارة إلى الخصم، لكن ينقصه الحديث عن الجانب الوجدانيّ الذي يمتزج بالعقليّ في بلاغة الاحتجاج، بخلاف الجانب العقليّ الصِّرف الذي يهيمن على الاحتجاج عند المتكلِّمين والمناطقة.

التعريف المستنبَط للاحتجاج العقليّ:

هو أسلوب للمناقشة والإقناع، فيه ردٌّ على المخالف، أو إرشادٌ له بحجّة عقليّة

(١) ينظر تفصيل هذه الأغراض ص٦١١ من هذا البحث.

وجدانيّة، تقطع عناده.

وبهذا يشمل التعريف الاحتجاج بالردّ من داخل القضيّة، أو من خارجها، والاستدلال بالإرشاد بذكر دليل يدعم القضيّة من خارجها.

فالاستدلال جزء من الاحتجاج[١]، قال أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـ) : « الفرق بين الاحتجاج والاستدلال: أنّ الاستدلال طلب الشيء من جهة غيره، والاحتجاج هو الاستقامة في النظر ... سواء كان من جهة ما يُطلَب معرفته، أو من جهة غيره»[٢].

دعائم أسلوب الاحتجاج العقليّ:

بتدبُّر الشواهد، وتأمُّل التعريفات، تتجلّى الدعائم الثلاث لهذا الأسلوب، وهي:

١. القضيّة.
٢. المتكلِّم المستدِلّ، وهو الطرف الأول الذي يبدأ بالمحاجّة.
٣. المخاطَب: وهو الطرف الثاني[٣]، وقد يكون معترِضًا أو منكِرًا أو محتجًّا، ويسمّى المعترِض أو المانِع[٤] أو المجيب[٥].

و «المستدِلّ سيكون معترِضًا بعد أن يتكلَّم مخالفه، والمعترِض سيكون مستدِلاً لمذهبه بعد أن ينقُضَ مذهبَه مخالفُه، وذلك أنّ كلّ واحد منهما مضادّ للآخر في مذهبه»[٦].

ولا يقوم هذا الفنّ على الأدلّة العقليّة وحدها، بل يستثير مكامن الوجدان، بانتقاء ألفاظ قويَّة الدلالة، ونظْمها في سلك معيَّن، قد تدعمه الصور لتحقيق الغرض المنشود.

---

(١) سيرد تفصيل العلاقة بين الاحتجاج والاستدلال ص٢٧٦ من هذا البحث .

(٢) الفروق اللغوية : ٧٠ .

(٣) ينظر : أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة : ٣٩٤ .

(٤) ذكر ابن تيمية مصطلح المانع في تنبيه الرجل العاقل : ٤١/١ .

(٥) ذكر ابن تيمية مصطلح المجيب، يقول: «لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متَّسِعًا وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا، يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب» . تنبيه الرجل العاقل : ١٥/١.

(٦) أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة : ٣٩٥ .

وله أساليب عدّة، حاولت حصرها في القرآن وتصنيفها، واستجلاء ما تومض به من قِيم وأسرار، ما بين أساليبَ تفاعليّة تقوم على الحوار وهي أساليب الاحتجاج، وأخرى يُستعان بها في إثبات الحقائق، وتقريرها، وهي أساليب الاستدلال، مستأنِسة بقرائنها السياقيّة المقاميّة في القرآن الكريم، والحديث الشريف من جهة، وبتوجيه العلماء لها من جهة أخرى، وفق أصول التفسير المعتمَدة.

أنواع الاحتجاج العقليّ:

للاحتجاج العقليّ نوعان: محمود ومذموم.

الاحتجاج العقليّ المحمود: هو ماكان بحق للوصول إلى حق، والمذموم يكون بالباطل للوصول إلى حق أو باطل، ففي المذموم تكون الوسيلة والغاية حقًّا، وفي المذموم تكون إحداهما أو كلتاهما باطلاً.

ففي مجال المدح أُضيفت أداته -وهي الحجّة- إلى الله، ووُصفت بالبالغة، كما في قول الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وآتاها إبراهيم، حيث قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فمُدحت في هذين الموضعين.

وفي الذمّ نُسبت الحجّة إلى أهل الضلال، ووصفت بالدحوض في قول الله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وتُميَّز كلتاهما عن الأخرى في نحو حكاية قول المشركين حين احتجُّوا بحجَّة داحضة على استمرارهم على الشرك بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فحجّتهم حقّ أريد به باطل، وقد ردّ الله عليها بحجّة بالغة تُلجم أفواههم بقوله ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩][(١)]، فيمكن أن يقدِّم المستدلّ حجَّة على أمر معين ببراهين باطلة؛ فتكون الحجّة داحضة، وهذا هو الاحتجاج المنهيّ عنه.

---

(١) سيرد تحليل الشاهد مفصلاً ص٩٤ من هذا البحث.

الفرق بين الاحتجاج والجدال:

الجدال من أقرب المفردات إلى الاحتجاج، واشتهر عند الأصوليـــِّين والمناطقة، وصنِّفت المؤلَّفات في جدل القرآن، والمتدبِّر في آيات القرآن يجد الجدال والاحتجاج يستعمل أحدهما بمعنى الآخر، أو يفسَّر به، أو يفسَّر كلاهما بالخصومة، ومن الصعب تمييز العلاقة بينهما، قال السعديّ (١٣٧٦هـــ): «المحاجّة هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلّق بالمسائل الخلافيّة، حتى يكون كلٌّ من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكلّ واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجّة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يردّ الضالَّ إلى الحقِّ، ويقيم الحجَّة على المعاند، ويوضِّح الحقّ، ويبيِّن الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها»[١]، فيلحظ أنه فسّر المحاجّة بالمجادلة، وجعل ما يقيم الحجّة على المعاند، ويميِّز الحقّ من الباطل، ويكون بالتي هي أحسن من المحاجّة، وما عداه مماراة ومخاصمة، ويرد نحو هذا في كتب التفسير[٢]؛ إذ تنظر إلى ترادف لفظَي المحاجّة والمجادلة بالمعنى العامّ، دون استكناه للفرق الدقيق بين اللفظين؛ إذ ليس هو مصبّ عناية المفسِّرين، بل همّهم إظهار معنى الآية.

وبعد أن ناقشتُ معنى الاحتجاج العقليّ ونوعيه، سأستقرئ المواضع التي وردت فيها مادّة كلّ من الاحتجاج والجدال في القرآن الكريم، مبيِّنةً معاني الحجَّة ومشتقَّاتها مما يدلّ على الحِجاج، منتقلة منه إلى معاني الجدال، ثم إلى الآيات التي ورد فيها لفظه، محاولة استخلاص الفرق بينهما في القرآن.

١. معاني الاحتجاج في القرآن:

وردت مادة الحجّة وتصريفاتها مما يدخل في معنى الاحتجاج[٣] عشرين مرة في سبع عشرة آية[٤] بالمعاني التالية:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن : ٦٩ .

(٢) ينظر على سبيل المثال : جامع البيان : ٦٠٧/٢، والكشاف : ٩٨/١ ، وتفسير البحر المحيط : ٤١٣/١ ، والتحرير والتنوير : ٧٢٥/١ .

(٣) قيدته بما يدخل في معنى الاحتجاج؛ إذ وردت مادة (حج) بمعنى الحجّ الركن الخامس من أركان الإسلام .

(٤) ينظر : المعجم المفهرس : ١٩٣- ١٩٤ .

● المنافرة والمخاصمة مع المراجعة في القول، فأُطلق عليها لفظ المحاجّة، وإن كانت مجادَلة بالباطل؛ لإيرادها مورد الحِجاج في تقديم الأدلّة[(١)]، وإن لم تخلُ من شُبــهٍ فاسدة يسوقها أهل الضلال مساق البراهين، ويراجعون بها في القول، كما في الآيات التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: ٧٦]؛ إذ خاف المنافقون أن يتّخذ المؤمنون قولهم برهانًا عليهم بما أنزل ربُّهم في كتابه[(٢)]، ومثله ما جاء عن أهل الكتاب في قولهم: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٧٣]، إذ كانوا يحذِّرون بعضهم من الاطمئنان للمؤمنين، وإظهار أسرارهم وما عندهم، فيتّخذ المؤمنون قولهم حجّة يدحَضون بها ادِّعاءاتهم الباطلة[(٣)].

٢. قول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٩]، ومثله قوله جلّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ١٦]. قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ) : «محاجّتهم هي ما يُلبسوه به[(٤)] على المسلمين لإدخال الشكّ عليهم في اتّباع الإسلام كقول المشركين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم في الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقولهم في إنكار البعث: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: ٣]، وقولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]، وكقول أهل الكتاب: نحن الذين على دين إبراهيم، وقولهم: كتابنا أسبق من كتاب المسلمين. وإطلاق اسم الحجّة على شبُهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكُّم، والقرينةُ قوله: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾»[(٥)].

---

(١) ينظر : روح المعاني : ١٦/٢ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٧٨/١- ٧٩ ، وأنوار التنزيل : ٣٤٨/١ .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢٤٥ .

(٤) كذا وردت، والصواب ما يلبسونه على المسلمين؛ إذ الفعل من الأفعال الخمسة، ولم يسبق بناصب أو جازم .

(٥) التحرير والتنوير : ١٣٢/٢٥ .

٣. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فسمِّي ما أتى به ذلك الكافر من الباطل حِجاجًا؛ لأنه أتى بدليل حسِّيّ، وإن كان على سبيل المغالطة؛ إذ لم يكن ادِّعاؤه بمراء مجرّد من الأدلّة، فقد ورد أنّه أتى برجلين استحقَّا القتل؛ وأمر بقتل أحدهما، وبالعفو عن الآخر موهمـًا أنّه المحيي، مدَّعيًا لنفسه مقام الإلهيـّة بصفتي الإحياء والإماتة عنادًا ومكابرة(١).

٤. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠]، فسمِّيت مجادلتهم حِجاجًا؛ إذ استدلّوا فيها بأدلّة مع أنها لم تعْدُ أن تكون شُبَـهًا باطلة، وأقوالاً محرّفة(٢).

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات التالية:

١. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١] .

٢. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٣. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

٤. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر: ٤٧].

٥. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٥].

- ووردت الـحُجّة بمعنى البرهان، باختلاف فيمن تصدر عنه(٣):

-فتارة تصدر من الحقّ ﷻ إلى الخلق ببيان آيات القرآن، وإظهار البرهان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٥٠]. فـ «التولية عن

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢٠٨ ، وسيرد تحليل الآية كاملة ص١٠٧من هذا البحث .

(٢) ينظر : معالم التنـزيل : ١٩٥ .

(٣) بصائر ذوي التمييز : ٤٣١/٢ – ٤٣٢ .

الصخرة تدفع احتجاجَ اليهود بأنّ المنعوتَ في التوراة من أوصافه أنَّه يحوِّلُ إلى الكعبة، واحتجاج المشركين بأنه يدَّعي ملّةَ إبراهيمَ ويخالف قِبلتَه»[1]، ومثله قول الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وكذا قوله ﷻ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

-وطَورًا تكون الحجّة من الله يؤتيها خليله إبراهيم عليه السلام لتمهيد قواعد الإيمان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

-وآونة تصدر عن أهل الهداية إلى أهل الغواية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥].

• وجاز أن يسمَّى ما يحتجُّ به أهل الضلال حجّة كقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: ١٦]، لكن لبطلانها وُصفت بالدحوض .

• وكذلك جُعلت المحاجّة بعلم وبغير علم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

٢. معنى الجِدال:

أصل الجِدال يدلّ على «استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام»[2].

وجاء في لسان العرب: جَدَله جَدْلاً وجَدَّله فانجدل وتَجَدَّل: صَرَعه على الجَدَالة وهو مجدول، وقد جَدَلْتُه جَدْلاً، وأَكثر ما يقال: جَدَّلْته تَجْديلاً، وقيل للصَّرِيع مُجَدَّل؛ لأَنه يُصرَع على الجَدَالة، وهي الأرض. والجدْل والجَدَل: اللَّدَدُ في الخُصومة، والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجِدالاً. ورجل جَدِل ومِجْدَل ومِجْدال: شديد الجَدَل قويّ في الخصام.

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٢١٨/١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : (جدل) : ١٨٩.

ويقال: جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلاً. أَي: غلبته، والاسم الجَدَل، وهو شدَّة الخصومة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة[١].

٣. معاني الجدل في القرآن:

وردت مادّة الجدل في القرآن في تسعة وعشرين موضعًا في سبع وعشرين آية[٢]. وجاء لفظ الجَدَل فيها مذمومًا، و لم يُمدح منه إلاّ ما جاء بالحسنى ردًّا على جدال أهل الباطل؛ لذا نجد بعض الأصوليـّين يعرِّفه بأنـَّه: اللَّدَد واللِّجاج في الخصومة والكلام، وهو مِراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها، وهو دفع الخصم عن إفساد القول بحجّة، أو شُبهة، يُقصَد بها تصحيح كلامه، وغرضه الإلزام والإفحام[٣]. فالأكثر فيه أن «يكون لدفع الحقّ، أو لتحقيق العناد، أو ليُلبِس الحقّ بالباطل، أو لما لا يُطلب به تعرُّف، ولا تقرُّب، إلى غير ذلك من الوجوه المنهيّ عنها»[٤].

وجاء في القرآن ثلاثة مواضع من الجدل المحمود الذي يُقصَد الوصول إلى الحقّ، ودفْع الباطل[٥]، اثنان منها على وجه الطلب مقيَّدًا بالتي هي أحسن، فانتفت عنه صفة الذمّ، والموضع الثالث ورد في قصّة خولة بنت ثعلبة، وعُبِّر فيه بالجدال؛ لإكثارها من مراجعة النبيّ ﷺ في شأن زوجها.

أمّا الموضعان الأوَّلان فجاء التعبير فيهما بالجدال؛ لأنّهما في مواجهة أهل الضلال، فحين يجابه الفجَرة الدعوة إلى الله بالجدال، يقابلهم الهداة بجدال مبنيٍّ على أصول العقيدة. فأوثر لفظ الجدال على الحِجاج، لسببين اثنين:

أوّلهما: أنه ردٌّ على فئة معترضة تجادل بالباطل، فيردّ عليهم الداعي بجدال بالتي هي أحسن، ووُصف بالحسنى؛ لأنّ همّه إظهار الحقّ، لا مطلَق النزاع.

---

(١) ينظر : لسان العرب : (جدل) : ١/٣٩٠ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس : (جدل) : ١٦٥ .

(٣) ينظر : التعريفات : ٧٧- ٧٨ ، وشرح الكوكب المنير : ٤/٣٥٩-٣٦٠، ومعجم مصطلح الأصول : ١٠٥ ، ومعجم مصطلحات أصول الفقه : ١٥٤ .

(٤) الكافية في الجدل : ٢٢ .

(٥) وهي : الآية ١٢٥ : من سورة النحل ، والآية ٤٦ : من سورة العنكبوت ، والآية ١ : من سورة المجادلة.

الثاني: الحثّ على مداومة الدعوة، والاسترسال فيها، والصبر عليها، ومعنى الاسترسال خاصّ بالأصل اللغويّ للجدال، دون الاحتجاج.

ويكشف الفخر الرازيّ (٦٠٦هـ) عن لطيفة بلاغيّة في الأمر بالجدال الذي ورد في قول الله تعالى: ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ منبِّهًا على أنّ الدعوة إلى الله قُصرت على الحكمة والموعظة الحسنة، فتكون حكمة إذا كانت بالدلائل القطعيّة، وهي موعظة حسنة إذا جاءت بدلائل ظنّيّة، أمَّا الجدل فليس من باب الدعوة، بل مقصوده الإلزام والإفحام؛ لهذا قُطع عن باب الدعوة، فلم يُقَل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال الحسن[١] .

ويضيف الحسين النيسابوريّ (٧٢٨هـ) مبيِّنًا الغرض من الجدال المندوب إليه في الردّ على المجادلين المعاندين، وهو «الذبّ عن الدين القويم، والدعاء إلى الصراط المستقيم، وإلزام الخصم الألدّ، وإفحام المعاند اللجوج بمقدِّمات مشهورة، وآراءٍ محمودة حتى يستقرَّ الحقُّ في مركزه، وتضمحلّ صولة الباطل، وتركد ريحه»[٢].

ودلّ الجدال فيما سوى المواضع الثلاثة السابقة على مطلَق الخصومة، لكن قد يعنّ تساؤل عن توجيه الآيات التي ورد فيها الجدال مُسنَدًا من الله إلى الأنبياء، وأهل الهدى، وما سرّ التعبير فيها بالجدال -مع ذمِّه- دون الحِجاج، وهي أربعة مواضع:

١. جدال إبراهيم عليه السلام في قوم لوط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾** ﴾[هود: ٧٤]. «والمجادلَة هنا: دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربّه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم»[٣]، وعوتب بعدها في قول الله تعالى: ﴿ **يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾** ﴾ [هود: ٧٦].

٢. جدال النبيّ ﷺ في الخائنين من المنافقين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ**

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي : ٢٨٧/٧ .

(٢) غرائب القرآن : ١٧٥/٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٩٩/١١ .

﴿أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧].

٣. وجدال الصحابة في حقِّ أولئك الخوَنة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٩]. فقد عُوتبوا، وأُنكر عليهم ذلك الجدَل، ودُعُوا إلى اجتنابه، فهو لا يُغني عن صاحبه شيئًا؛ إذ حكم الله أنــّه ﴿ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (١).

٤. جدال فريق من المؤمنين النبيّ ﷺ في لقاء المشركين في غزوة بدر، بعدما تبيّن لهم أنّ خروجهم بالحقّ، وممَّا أمر الله به ورضيه، حيث كرهوا لقاء عدوِّهم، فكانوا في خروجهم كأنّما يساقون إلى الموت، وهم ينظرون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾[الأنفال: ٦]، فأُنكر عليهم ذلك؛ إذ ليس للجدال محلّ بعد حكم الله، بل مكان الجدال وفائدته تكون عند اشتباه الحقّ والتباس الأمر، أمّا إذا وَضح الحقّ وبان، فليس إلاّ الانقياد والإذعان(٢).

الجواب إذن أنّ المواضع الأربعة السابقة تشترك في كونها جدالاً في شيء مفــروغ منه، والأمر ما قضاه الله، وحكم به، ولا مردّ له بجدال، فلا حجّة فيه تستدعي المراجعة؛ لذا جاء التعبير بالجدال في مقام العتاب نهيًا عن العودة لمثله.

أمّا الباقي ممــا ورد من مادّة الجدل في القرآن، فجاء على وجوه مختلفة:

أوّلها: دعوة نوح لقومه التي عبَّروا عنها بالجدال، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢]، وقد وصفوا دعوته إيّاهم بالجدال على وجه الذمّ؛ لإكثاره من مراجعتهم.

الوجه الثاني: جدال الكفّار والمشركين وغيرهم في أصول العقيدة التي يجب أن تقابَل بالانقياد والطاعة، وذلك لأجل الخصومة فحسب؛ لذا كان أمر الله نبيّه ﷺ بالإعراض عنهم، وترك المراء معهم، وردّ الأمر إلى الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤٩/٤، والتفسير البلاغي للاستفهام : ٢٢٧/١.

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن : ٣١٦ .

﴿نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الحج: ٦٧ - ٦٨]، ومن أمثلة جدالهم :

١. جدالهم في إثبات وحدانية الله، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾[الرعد: ١٣].

٢. جدالهم ومحاولاتهم إثبات حقِّية آلهتهم، فأُنكر عليهم ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[الأعراف: ٧١] ، وكذا جادلوا في خيريّة عيسى عليه السلام والأصنام محاولين إثبات حقِّيتها، فعنّ لهم أن يستفهموا، على سبيل التنزُّل تبجّحًا، فقالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، لكن عالم الغيب والشهادة كشف لؤم نحيزتهم، وخبث جِبلَّتهم بقوله جل جلاله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٨]، فهم لم يأتوا بقولهم إلاّ مغالطة لأجل الغلبة، لا بحثًا عن الحق[1].

٣. جدالهم في صدق آيات الله، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وذُمَّ هذا الجدال في آيات الله، وقُصر على الذين كفروا، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ [غافر: ٤]، كما عوقب صاحبه بمقت من الله وأوليائه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٣٥]، ففي هذا النوع من الجدال دلالة على صفة الكبر، وهي من أقبح الصفات في الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]؛ لذا شدِّد النكير عليه؛ لأنّه في أمور عظيمة ثابتة يجب أن تقابَل بالتسليم والطاعة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩]؛ وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى: ٣٥]،

---

(١) ينظر : تفسير البحر المحيط : ٨/٢٥ .

والجدال في آيات الله مثل الجدال في أحكامه والتشكيك فيها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، «فإنّ المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله ﷺ الميتةَ، وتحليله للمذكّاة، وكانوا يستحلُّون أكل الميتة، قالوا معاندةً لله ورسوله، ومجادلةً بغير حجّة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة. وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجّة، ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحقّ تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهنّ!... ولا يستغرب هذا منهم، فإنّ هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلُّوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير»[(١)].

٤. جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحقّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥].

٥. الجدال بغير علم، وهو أشدّ ما يذمّ من الجدال، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الحج: ٣]، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج: ٨]، و[لقمان: ٢٠].

الوجه الثالث مما ورد من مادّة الجدال: جدال موجود في جِبلَّة الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤]، وجدال جاء النهي عنه في الحجّ بمجاهدة النفس، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] [(٢)]، ومنه جدال الناس يوم القيامة، كلّ نفس تجادل «عن ذاتها وتسعى في خلاصها بالاعتذار، لا يُهِمّها شأنُ غيرها، فتقول: نفسي نفسي» [(٣)]، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[النحل: ١١١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن : ٢٧١ .

(٢) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢/٤٧٣- ٤٧٤ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤/٩٦ .

ومّما سبق عرضه في معنى الجدال يمكن التوصّل إلى أنّ الجدال يختلف عن الاحتجاج في عناصر ثلاثة:

أوّلها: وروده: أكثر ما ورد الجدل على وجه الذمّ بقصد أنه لا يعدو أن يكون شُبَهًا ودعاوى باطلة خالية من الأدلّة، غرضها الغلَبة، وقهر الخصم، فيطلَق -في الأغلب- على ما لا طائل تحته من الكلام، بينما تُنسَب الحجّة لله أو لأنبيائه، والأصل في الاحتجاج المدح؛ إذ غرضه الوصول إلى الحقّ.

ثانيها: طريقته ووسيلته: طريقة الجدال تعتمد على التكرار، والمراجعة في الكلام، والاسترسال في الخصومة؛ وصولاً إلى النصر، وإن كان مجانبًا للحقّ، فالأقرب إليه من المفردات السفسطة والمِراء، بينما يعتمد المحاجّ في أيّ مسار حجاجيّ على آلات تسمَّى حُججًا[1]، فلا بدّ فيه من الحجّة، وإن كانت باطلة، فإبليس مثلاً في قوله: ﴿**أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ** ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢] قدّم حجّة، لكنها احتياليّة داحضة، ويقارب الحجّة من المفردات، البرهان، والدليل، والسلطان.

ثالثها: الغرض منه: المطلوب بالجدال الانتصار، وقهر الخصم، بينما غرض الحِجاج على الأغلب ظهور الحقّ والصواب أينما كان، قال البقاعيّ (٨٨٥هـ): «الجدل شدّة الفتل، والمطلوب به الرجوع عن المذهب، والمطلوب بالحِجاج ظهور الحجّة»[2].

وسأعرض هنا ما يجلّي غرض الجدل من أقوال العلماء، ليكون الفرق على أساس سليم:

١. أصل الجدل من فتْل الحبل والصراع، «كأنّ كلاًّ من المتجادلَين يفتل الآخر عن رأيه»[3]، أو يصرعه على الأرض من قوّة جدله.

٢. «الجدَل: تردُّد الكلام بين اثنين قصْد كلِّ واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه»[4].

---

(١) ينظر: الحِجاج بين المنوال والمثال: ٨٤.

(٢) نظم الدرر: ٥٢٧/٣.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ٣٧٣/٢.

(٤) المنهاج في ترتيب الحجاج: ٢١.

٣. «ليس غرض الجدليّ من حيث هو جدليّ الحقّ»[١].

٤. الجدَل: هو «الدلائل التي القصد منها إفحام الخصم»[٢].

٥. «سُمِّيت المخاصمة جِدالاً؛ لأنّ كلّ واحد من الخصمين يريد ميل صاحبه عمّا هو عليه، وصرفه عن رأيه»[٣].

٦. «الجدَل: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالَبة»[٤].

٧. الجدَل: هو القدرة على الخصام، والمنازعة في القول، ففيه مراجعة في القول، واسترسال لإثبات مقصود المجادل، وإبطال مطلوب مَن يخالفهُ[٥].

٨. «المجادَلة: المكاسَرة، والجدَل: الكسْر، وذلك لأنّ كلّ واحد من المتجادلَين يريد أن يكسر ما عند صاحبه ليقهرَه، لا لإقامة الحقّ، ومحْق الباطل»[٦].

٩. الجواب الجدليّ هو « ما يذكره المجيب، وهو يعتقد بطلانه، سواء كان باطلاً في نفس الأمر، أو غير باطل. والمنطقيُّون يقولون: إن المراد بالحجّة الجدليّة إفحام الخصم، أو إقناع القاصر عن الدليل»[٧].

خلاصة الفرق:

بتأمُّل ما سبق يظهر أنّ للمجادَلة «ثلاثة ملامح واضحة: الشِّدّة، مع الاستمرار في مراجعة الكلام، والقصد إلى قهر الخصم في الأعمّ الأغلب»[٨].

أمَّا الملمح الواضح للاحتجاج، فهو التقارُع بالحجة، وإقامة الحقّ، ونصرته وإظهاره[٩]، فأصل معناه القصد، ومأخوذ –كما أسلفت– من الحجّة وهي «برهان أهل

---

(١) المنطق : ٣٧٦/١ .

(٢) التفسير الكبير للرازي : ٢٨٧/٧ .

(٣) السابق : ٢١٤/٤ .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (جدل) : ٧٩ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤٨/٤، ١٩٥/٢٤ .

(٦) الفروق ومنع الترادف : ٨٧ .

(٧) آداب البحث والمناظرة : ٨٩/٢ .

(٨) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم : ١٧٩ .

(٩) ينظر : الفروق ومنع الترادف : ٨٧ ، ومعجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم : ١٨٠ .

الحقّ، والدلالة البيِّنة للمحجّة، أي: المقصِد المستقيم»[1]. والاحتجاج ما دُلّ به على صحّة صحّة الدعوى، ومنه المحجّة، وهي الطريق الواضح. فهو أرقى من الجدال، لذا أسند الله إلى نفسه الحجّة، ووصفها بالبالغة، وآتاها إبراهيم عليه السلام، فكان حكيم الأنبياء؛ لأنّ أصل غرضها الوصول إلى الحقّ؛ ولا بدّ فيها من الأدلّة، بينما الجدل خصومة، تقوم على الاسترسال والمراجعة في القول رغبة في الظفر. فمن أنواع الجدال المذموم: السفسطة والمراء والمغالَطة.

ويشبه الاحتجاج الجدال —كما تقدّم- في أن كلاًّ منهما ينقسم قسمين: محمود ومذموم، فالاحتجاج يكون موجبًا للمدح العظيم والثناء البالغ، ومنه الحجّة الحقّ الصحيحة التي أسندها الله إلى نفسه، ووصفها بالبالغة في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا آتاها خليله عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ويأتي الاحتجاج موجبًا أشدَّ الذمّ والزجر، نحو قول الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ففيه إنكار على من يحاجّ في تقرير الباطل، وإذا ثبت هذا ظهر أنّ كلّ ما جاء في القرآن في تهجين أمر المحاجّة، فمحمول على تقرير الباطل، وكلّ ما جاء في مدحها فمحمول على تقرير الحقّ والصدق. والله أعلم[2]، لكن لعلّ الجدال يختلف عن الاحتجاج في أنّ أصله مذموم، ولا يمدح إلاّ إنْ كان بالحسنى.

ويجلِّي الفخر الرازيّ (٦٠٦هـ) الفرق بين الجدل والاحتجاج؛ إذ يذكر أنّ الحجج تنحصر في أقسام ثلاثة ذكرها الحقّ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

«**أوّلها**: الحجّة القطعيّة المفيدة للعقائد اليقينيّة، وذلك هو المسمّى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وثانيها: الأمارات الظنِّيـَّة والدلائل الإقناعيَّة، وهي الموعظة الحسنة .

---

(١) بصائر ذوي التمييز : ٤٣١/٢ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي : ٤٨/٥ ، وبدائع الفوائد : ٦٥٥ .

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل. **ثم هذا الجدل على قسمين:**

القسم الأول: أن يكون دليلاً مركَّـبًا من مقدِّمات مسلَّمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدِّمات مسلَّمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

القسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركَّـبًا من مقدِّمات باطلة فاسدة، إلاّ أنّ قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل، إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿**وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الأقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية»[1].

ويربط الفخر الرازيّ الأقسام الثلاثة في الآية بالفئات البشريّة التي توجّه إليها بقوله: «أهل العلم ثلاث طوائف:

- الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقيّة والعلوم اليقينيّة، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلاّ بالدلائل القطعيّة اليقينيّة، وهي الحكمة.

- والقسم الثاني الذي تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة، لا طلب المعرفة الحقيقيّة والعلوم اليقينيّة، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادَلة التي تفيد الإفحام والإلزام.

وهذان القسمان هما الطرفان؛ فالأول هو طرف الكمال، والثاني طرف النقصان.

- وأمّا القسم الثالث: فهو الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حدِّ الحكَماء المحقِّقين، وفي النقصان والرذالة إلى حدّ المشاغبين المخاصِمين، بل هم أقوام بقَوا على الفطرة الأصليّة والسلامة الخلقيّة، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينيّة والمعارف الحكميّة، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلاّ بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحقِّقون، وأوسطهم عامّة الخلق، وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذين جُبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة، فقوله تعالى: ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ**﴾ معناه:

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ٢٨٧/٧ .

-ادعُ الأقوياء الكاملين إلى الدِّين الحقّ بالحكمة، وهي البراهين القطعيــّة اليقينيّة.
- وعوامّ الخلق بالموعظة الحسَنة، وهي الدلائل اليقينيّة الإقناعيّة الظنِّيــّة.
- والتكلُّم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل»[1].

ويسلِّط الحسين النيسابوريّ (٧٢٨هـ) الضوء على معنى الأمر بالجدال في الآيــة: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ بقوله: «وليس للدعوة إلاّ هذان الطريقان -أي: الحكمة والموعظة الحسنة-، ولكنّ الداعي قد يضطرّ مع الخصم الألدّ إلى استعمال الحجج الملزِمة المفحِمة؛ فلهذا السبب عطف على الدعوة قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي﴾ أي: بالطريقة التي ﴿هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، فكأن طريق الجدال لم يكن سلوكه مقصودًا بالذات، وإنما اضطرّ الداعي إليه؛ لأجل كون الخصم مشاغبًا. وإنما استُحسن هذا الطريق لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا. فإن كان مبطلاً، وأراد تغليط السامع لم يكن جداله حسنًا، ويسمى دليله مغالطة»[2].

ويلفت الألوسيّ (١٢٧٠هـ) النظر إلى اللطائف البيانيّة في ترتيب تلك الأساليب في الآية بقوله: «ولكون الحكمة أعلى الدلائل وأشرافها[3]، والمدعوِّين به الكاملين الطالبين للمعارف الإلهيــّة والعلوم الحقيقيــّة -وقليل ما هم- جيء بها أولاً، ولكون الجدل أدنى الدلائل؛ إذ ليس المقصود منه سوى إلزام الخصم وإفحامه، ولا يستعمل إلاّ مع الناقصين الذين تغلب عليهم المشاغبة والمخاصمة، وليسوا بصدد تحصيل هاتيك العلوم ذُكِر أخيرًا، ولكون الموعظة الحسنة دون الحجّة، وفوق الجدل، والمدعوين بها المتوسِّطين الذين لم يبلغوا في الكمال حدّ الحكماء المحقِّقين، ولم يكونوا في النقصان بمرتبة أولئك المشاغبين؛ وُسِّطت بين الأمرين، وكأنــّه إنّما لم يقل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والجدال الأحسن؛ لِمــا أنّ الجدال ليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير لها، وهو الإلزام والإفحام»[4].

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ٢٨٧/٧ .
(٢) غرائب القرآن : ١٣١/١٤ .
(٣) كذا وردت، والصواب وأشرفها.
(٤) روح المعاني : ٤٨٩/٧ .

وبهذا يظهر الفرق بين الجدل والاحتجاج، مما أدّى إلى إيثار مصطلح الاحتجاج على الجدل في هذا البحث؛ للأسباب التالية:

١. الحجّة ركن من أركان البلاغة العربية بعامّة[١]، والقرآن بخاصّة، فهي «في كلام العرب ما يُقصَد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تفصِّـيًا[٢]، ولذلك يقال للذي غلَب مخالفه بحجته: قد حَجَّه ... فالحُجّة لا تطلَق حقيقة إلاّ على البرهان، والدليل الناهض المبكِّت للمخالِف، وأمّا إطلاقها على الشُّبهة فمجاز؛ لأنها تُورَد في صورة الحجّة، ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦] »[٣]، والحِجاج أسلوب مهمّ من أساليب نظم القرآن، وتثبيت دعائم الدين وأصوله، لينذر به قوما لدًّا، سعيًا للوصول إلى الحقّ والمحجّة؛ إذ أُمرنا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والردِّ على الجدال بالتي هي أحسن فهو وسيلة للردّ على الخصوم؛ وليس المقصود منه سوى الإلزام والإفحام، ولا يستعمل إلاّ مع من تغلب عليهم المشاغبة والمخاصمة، وليسوا بصدد تحصيل علم[٤].

٢. أنّ الجدال لا يأتي إلاّ بمحاورة بين طرفين، بينما يأتي الاحتجاج في القرآن بالحوار، وبالاستدلال وتقرير الحقائق مقرونة بالدليل الواضح والحجّة النيِّرة، دون جدال.

٣. أنّ الاحتجاج يفوق الجدل في المرتبة والغاية؛ لأنّ أصل غرضه الوصول إلى الحقّ؛ ولا بدّ فيه من الأدلّة، وقد أسند الله إلى نفسه الحجّة، ووصفها بالبالغة، وآتاها إبراهيم عليه السلام؛ والاحتجاج وسيلة من وسائل الحكمة في الدعوة، وهو أعلى مراتبها، بينما الجدل يقصد إلى قهر الخصم، وهو أدنى مراتب الدعوة.

---

(١) سأفصل الحديث في قيمة الاحتجاج في الدرس البلاغي ص ٤٣ من هذا البحث.

(٢) « تفَصَّيت من الأمر تَفَصِّـيًا: إذا خرجت منه، وتخلّصت ». لسان العرب : (فصي) : ١٣٦/٥ . ومنه قول النبيِّ ﷺ : "استذكروا القرآن، فلهو أشدّ تفصِّـيًا من صدور الرجال من النَّعَم بعُقُلها" متفق عليه. أخرجه البخاري، من حديث عبد الله، في كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، رقم الحديث : ٥٠٣٢، ٥٠٣٣، ومسلم في كتاب فضائل القرآن وما يتعلّق به، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيتها. رقم الحديث : ٧٩٠ .

(٣) التحرير والتنوير : ٤٦/٢ ، وينظر : روح المعاني : ٢٦/١٣.

(٤) ينظر : التفسير الكبير للرازي : ٢٨٦/٧-٢٨٧ ، وروح المعاني : ٤٨٩/٧ .

المبحث الثاني

الاحتجاج العقليّ في الدرس البلاغيّ، وصلته بالدراسات القرآنيّة

قيمة الاحتجاج في الدرس البلاغيّ:

الاحتجاج جانب مهمّ في البلاغة، وفيما يلي دلالة على قيمته :

١. قال الأحنف بن قيس (٧٢هـ) : «البلاغة: الإيجاز في استحكام الحجج، والوقوف عند ما يُكتفى به»[١].

٢. وذكر عبيدالله بن عتبة الهذليّ (٩٨هـ) أنّ : «البلاغة دنوّ المأخذ، وقرع الحجّة، والاستغناء بالقليل عن الكثير»[٢].

٣. وبيّن خالد بن صفوان الأهتميّ (نحو ١٣٣هـ) قيمة الحجّة في البلاغة بقوله: «ليس البلاغة بخفّة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنّها إصابة المعنى، والقرع بالحجّة»[٣].

٤. وعرّف عبدالله بن المقفع (١٤٢هـ) البلاغة بأنّها «اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج...»[٤].

٥. وجعل الجاحظ (٢٥٥هـ) العناية بالحجّة أُسّ البلاغة، يقول: «البلاغة هي إصابة المعنى، والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز، أو معرفة الفصل من الوصل»[٥] ، «وكان العرب يمدحون شدّة العارضة، وظهورَ الحُجَّة، وثَباتَ الجَنَانِ، وكثرة الريق، والعلُوَّ على الخَصْم؛ ويهْجُون بخلافِ ذلك»[٦]. ونَقل عن بعض أهل الهند قوله: «جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة،

---

(١) بهجة المجالس : ٧١/١ .

(٢) الرسالة العذراء : ٨١ .

(٣) السابق بصفحته .

(٤) البيان والتبيين : ٨٥/١ .

(٥) رسائل الجاحظ، البلاغة والإيجاز : ١٥١/٤ .

(٦) ينظر : البيان والتبيين : ١٢٤/١ .

والمعرفة بمواضع الفرصة»[١].

٧. وعدّ أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـ) وضوح الدلالة وقرع الحجّة من حدود البلاغة مستشهدًا بقول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٨ -٧٩][٢].

٨. وذكر عبدالقاهر (٤٧١هـ) أنّ «التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يُشكل، وحلّ ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجّة، واستظهارًا على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبيُّنًا للسبيل، شيء في سُوس العقل، وفي طباع النفس» [٣].

وبهذا تتجلّى المكانة العليَّة التي يتبوّأها أسلوب الاحتجاج من البلاغة؛ إذ البلاغة ملكة يؤثِّر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم، بحسب مقتضى الحال والمقام، فيتمّ بذلك الإقناع على أكمل صورة، فقد يخاطب البليغ نفوسًا لازمها الجهل مع زيف العقل، واعتساف الحكم مع الإلف وخطل الرأي، وغلبة الهوى مع فساد الوهم، وحينئذ لا بدّ أن تتناصر قوى العقل بطريق البرهان على كسر هذه المقاومة[٤]. ومع الصبغة العقليّة العلميّة للاحتجاج القرآنيّ في إفحام الخصوم، إلاّ أنه يأتي في قوالب بيانيّة تتفتح لها القلوب مع العقول.

وترد أساليب الاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأدب العربي شعره ونثره:

١. فمن نماذجه في القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٧٨ -٨٠]، وهذا المجال

---

(١) البيان والتبيين : ٦٨/١ .

(٢) كتاب الصناعتين : ٢٣-٢٤ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٣٤ .

(٤) ينظر : دفاع عن البلاغة : ٢٠- ٢١ .

هو ما خصّصته لهذا البحث.

٢. ومن الحديث الشريف، ما رواه سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة قال: "جاء رجل من بني فزارة إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتي ولدت غلامًا أسود. فقال: النبيّ ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: فما ألوانها؟ قال: حُمر. قال: فهل فيها أورق؟ قال: نعم. إنّ فيها لوُرْقًا. قال: أنّى أتاها ذلك؟ قال: لعلّ عرقًا نزعها. قال: فهذا، لعلّ عرقًا نزعه"(١).

٣. ومن أمثلته في الشعر العربيّ، قول أبي تمام:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُودًا في النَّدَى وَالبَاسِ
فالله قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً منَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ(٢)

*****

صلة الاحتجاج بالدراسات القرآنيّة:

وقف الباقلانيّ (٤٠٣هـ) متأمِّلاً التصرُّف العجيب في معاني القرآن، والنظم العظيم في ألفاظه مما يدلّ دلالة بيِّنة على الإعجاز، مع الانتقاء والإيجاز، واستدلّ على ذلك بكثير من الآيات في شتّى الموضوعات منها آيات الاحتجاج، داعيًا إلى تدبُّرها بعين العقل والبصيرة، والتفكُّر في كلماتها مفردةً ومنتظمة، ومعانيها متكاملةً فصلاً وقصة، وتامّة حديثًا وسورة، كقول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢ - ٢٣](٣). واستدلّ على أنّ القرآن معجزة فريدة بكثير من الآيات، ومنها آيات الاحتجاج على التوحيد، مبيِّنًا طريقة

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الولاء والهبة، باب ما جاء في الرجل ينتفي من ولده : رقم الحديث : ٢١٢٨، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب الرجل يشكّ في ولده : رقم الحديث : ١٩٩٢، وصحّحه الألبانيّ. ينظر : صحيح وضعيف سنن الترمذيّ : ١٢٨/٥، وصحيح وضعيف سنن ابن ماجه : ٢/٥ .

(٢) البيتان من بحر الكامل، وهما لأبي تمام في ديوانه : ٣٦٢/١ .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن : ٢٤١- ٢٤٣ .

القرآن الفذّة في تصريف هذا الاحتجاج على الوحدانيَّة والقدرة، وجعل من وجوه الإعجاز ورود معاني القرآن التي يتضمّنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين، والردّ على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبلاغة مما يتعذّر على البشر[١].

يقول الفخر الرازيّ (٦٠٦هـ) : «لمَّا تأمَّلنا القرآن وجدنا فيه من الدلائل العقليّة على التوحيد والحشر والنبوَّة، وشرح صفات الله تعالى، وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب، ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها، وجدناه مبرَّأ عن التناقض والتهافت، فكان هدًى ورحمة من هذه الجهات، ووجدنا القوى البشريّة قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه، فعلمنا أنّه ليس إلاَّ من عند الله تعالى، فكان القرآن معجزًا من هذه الجهة»[٢].

ولهذا كلّه عُدّ أسلوب الاحتجاج العقليّ أسلوبًا من أساليب القرآن البيانيّة، وجزءًا من بلاغته الرفيعة، يبسط الأدلّة، ويسوق البراهين في بيان معجزٍ مقنِع ممتِع، يهدي الكافرين، ويلزم المعاندين.

ويُلحَظ أنّ كثيرًا من العلماء درس الاحتجاج تحت مصطلح الجدل نظرًا للعلاقة الوثيقة بين هذين المصطلحين؛ لكن الأليق -كما أسلفت- بأسلوب الدعوة القرآنيَّة هو الاحتجاج.

وقد أفرد الجدل بالتصنيف نجم الدين الطوفيّ (٧١٦هـ) في كتابه: عَلَم الجذَل في عِلْم الجدل، وخَصَّص الزركشيّ (٧٩٤هـ) فصلاً في علوم القرآن بعنوان جدل القرآن[٣]، يقول فيه: «اعلم أنّ القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلّة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كلِّيات المعلومات العقليَّة والسمعيَّة إلاّ وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلِّمين لأمرين:

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن : ٥٩-٦٠ ، ٩٣- ٩٤ .

(٢) التفسير الكبير للرازي : ٨/٥٧١ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢/٢٤-٢٧ .

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤].

والثاني: أنّ المائل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجّة بالجليل من الكلام، فإنّ من استطاع أن يُفهِم بالأوضح الذي يُفهِمه الأكثرون لم يتخطَّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلاَّ الأقلُّون، ولم يكن مُلغِـزًا، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدقِّ دقيق؛ لتفهمَ العامّة من جليلها ما يقنعهم، ويلزمهم الحجّة، وتفهم الخواصّ من أثنائها ما يوفِي على ما أدركه فهم الخطباء»[(١)].

والمتأمِّل في كلام الزركشيّ السابق يجد أنه سمّى ما وُجد في القرآن براهين وأدلَّة، ومحاجّة وحجّة، وذكر بعده ضروبًا من الاستدلال القرآنيّ، ولم يطلق عليها جدلاً إلاّ في العنوان، وربما كان لقصد التعميم؛ إذ في القرآن ما يُحكى عن الكفار والمشركين وأهل الكتاب وهو الجدل، ومنه مخاطَبات الله أو أنبيائه أو الداعين إلى الحقّ من المؤمنين، وهذه كلّها يناسبها لفظ الاحتجاج والحجّة والبرهان والاستدلال، والله أعلم!

وتبعه السيوطيّ (٩١١هـ) في الإتقان[(٢)]، أمّا في معترك الأقران فجعل ما ذكره عن جدل القرآن وجهًا من وجوه إعجازه، وسمّاه (اشتماله على أنواع البراهين والأدلّة)[(٣)]، ولعلّ هذا هو الأدقّ؛ إذ جعل هذا النوع البلاغيّ المهمّ وجهًا من وجوه إعجاز القرآن، وليس عِلمًا من علومه فقط نحو المكّيّ والمدنيّ، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، كما عبّر عنه بالألفاظ الأليق على وجه الإعجاز.

*****

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢/٢٤ .

(٢) ينظر : الإتقان : ٤/٥٢- ٥٧ .

(٣) ينظر : معترك الأقران : ١/٣٤٦ .